"بلاغة الحِجاج في خطب الحَجّاج"

إعداد

د.إسلام حسن إبراهيم فرج

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة عين شمس

DOI: 10.21608/jfpsu.2020.114935

مستخلص

يعد الحجاج مدخلا مهما لدراسة النصوص الأدبية ذات الصبغة الإقناعية،تلك النصوص التي تمثل خطابا إقناعيا يهدف أصحابها إلى التأثير في المتلقين، واستمالتهم للإقرار بصحة مقولة أو رأي ما.

ولما كان " الخطابة" فن مشافهة الجمهور لإقناعه واستمالته، كان لا بد للخطيب أن يعتمد على وسائل حجاجية إقناعية، يؤثر بها في نفوس سامعيه، ويبرهن من خلالها على صدق دعواه وصواب رأيه، يؤازره في ذلك جودة الصياغة، وجمال الأسلوب، وروعة البيان.

ومعلوم أن الخطابة قد علا شأنها ،وازدهرت في العصر الأموي؛ نتيجة كثير من الأسباب،منها:تعدد الأحزاب السياسية والتناحر فيما بينها. ومن أشهر ولاة الدولة الأموية وخطبائها: الحجاج بن يوسف الثقفي،الذي اشتهر بفصاحة لسانه،وأثر عنه خطب عديدة تنوعت مقاماتها؛ لتكشف عن بعض جوانب الحياة السياسية،والاجتماعية في عصره..

وبمقاربة تلك الخطب نجد أن معظمها يزخر بقدر وفير من التقنيات اللغوية والوسائل البيانية التي أعانت قائلها على التأثير في المتلقين وحملهم على الإذعان له؛ لذا سيحاول هذا البحث الكشف عن آليات الحجاج ووسائله المختلفة في خطب الحجاج بن يوسف،لتبيان دورها في صوغ الخطاب والتعبير عن دلالاته.

الكلمات المفتاحية: الحِجاج – الخطابة – التدولية– الإقناع– الاستدلال

مفهوم الحجاج

إن الناظر في المعاجم العربية يجد أن الحجاج مصدر للفعل حاجج،" حاججته، أحاجه حجاجا ومُحاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها، والحجة:البرهان، ورجل محجاج أي جدل، والتحاج: التخاصم، وحاجه محاجة وحجاجا:نازعه بالحجة" (١)

وإذا تأملنا هذا المعنى اللغوي لاحظنا أن الحجاج يختص بالدلالة على معنيين هما:القصد،والإقناع ، أي أنه يكون بين طرفين متخاصمين، يغلب أحدهما الآخر بالحجة.

وإدراك العلاقة بين الحجاج والبلاغة في تراثنا العربي أمر جليّ لا تخطئه عين باحث،فهذا الجاحظ يعرف البيان بقوله:" اسم جامع لكل شيءكشف لك قناع المعنى،وهتك الحجب دون الضمير،حتى يفضي السامع إلى حقيقته...لأن مدار الأمر، والغاية التي يجري عليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى وفذلك هو البيان في ذلك الموضع" (٢)

وهو ما يؤكد أن البيان هو الإيضاح والكشف عن المعنى بتوظيف الحجة بيانيا بهدف الإفهام.

ويشير ابن الأثير إلى الوظيفة الإقناعية للبلاغة حين يقرر أن مدار البلاغة كلها استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم؛ لأنه لا انتفاع بإيراد الأفكار المليحة الرائقة،ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها.(٣)

كما يعد ابن وهب – في كتابه البرهان– الاحتجاج أحد أنواع النثر، ويجعله خطابا قوامه التعليل والإقناع. (٤)

ويصعب تحديد مفهوم الحجاج في الدراسات العربية الحديثة؛ وهذا راجع إلى تشعب مجالات استعماله، وكثرة الحقول المعرفية التي تتناوله.وبقراءة تلك الدراسات يُلاحظ أن بعض الدارسين يرون أن الحجاج على ضربين: أحدهما أنت فيه لا تخرج عن مجال المنطق،وبذلك يكون مرادفا للبرهان والاستدلال،والآخر تكون فيه في مجال أوسع لأنه يشمل مجمل التقنيات البيانية التي تساعد على إذعان السامع أو القارئ.(٥)

هذا وقد تناول الباحثون الحجاج من زاويتين:الأولى تعنى بدراسة العلاقة بين المتكلم والمتلقي، وما تحمله هذه العلاقة من توظيف آليات الإرسال ومراعاة حال المتلقين، أما الأخرى فتعدّ الحجاج بنية نصية، وحينئذ ينصب الاهتمام على الجوانب اللغوية.

ويعد طه عبد الرحمن من أبرز من تناولوا الحجاج في دراساتهم، ويعرفه بأنه:كل منطوق به موجه إلى الغير؛ لإفهامه دعوى مخصوصة، يحق له الاعتراض عليها [٦]

كما أكد أبو بكر العزاوي أن الأقوال اللغوية تحمل في ذاتها وظيفة حجاجية؛ فالحجاج – عنده– مؤسس على بنية هذه الأقوال اللغوية وحركتها داخل الخطاب.[٧]

وقد حاول محمد العمري تتبع الحجاج وآثاره في التراث الخطابي العربي ، ورأى أن الحجاج ينحصر في ثلاث صور:(القياس– المثل– الشاهد) [٨]

وسائل الاستدلال المنطقي

يعرف الاستدلال بأنه سوق الدليل وتقريره للإثبات، أو هو البحث العقلي بطريقة منظمة للوصول إلى حقائق مجهولة بمساعدة حقائق معلومة.[٩]

١ –القياس:

القياس: "فعالية استدلالية خطابية" [١٠] ،فهو وسيلة يتضمنها الخطاب ليكون أكثر إقناعا، ومن يعتمد القياس في خطابه"لا يصدر حكما من عنده، ولا يبتدئه،بل إنما يمدد حكم الأصل إلى الفرع، إثباتا ونفيا،اعتمادا على ما يجده هو من شبه بينهما يبرر القياس"[١١].

وإذا كانت المقدمات– في القياس– تشير إلى نتائج،فإن تلك النتائج لا تذكر، بل تستنبط بالعقل، فيكون القياس– حينئذ– دليلا عقليا.

ومن أمثلته في خطب الحجاج قوله مخاطبا اهل الكوفة:" زعمتم أني ساحر،وقد قال الله تعالى(ولا يفلح الساحر) وقد أفلحت"[١٢]

إن كان الحجاج ساحرا – كما زعموا– فلن يفلح، أما وقد فلح فإن فلاحه تفنيد لزعم أهل العراق، وإقرار بكذبهم؛ لأن تصديقهم إذن يتعارض ما ورد في كتاب الله عز وجل.

ونلحظ القياس كذلك في خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير ، حيث راح يبرر قتله بقوله:"إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله، ولو كان شيء مانع للعصاة لمنع آدم حرمة حرمة الجنة،لأن الله خلقه بيده، وأسجد له ملائكته،وأباحه جنته،فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير،والجنة أعظم حرمة من الكعبة"(١٣)

إن الحجاج يبرر انتهاكه لمكة، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وقتل ابن الزبير بقياس واضح؛ فآدم عليه السلام نبي خلقه الله بيده،وأسجد له ملائكته تعظيما وتشريفا له، ولكن آدم حين عصى ربه طرد من الجنة وحرم نعيمها، وكذلك ابن الزبير– وهو من أحبار الأمة كما قال الحجاج نفسه– حين خلع رداء الطاعة، وطمع في الخلافة استحق العقاب والقتل،وآدم عليه السلام والجنة أعظم من ابن الزبير ومكة.

هكذا حاول الحجاج التأثير في أهل مكة وإقناعهم بصواب ما فعله، متوسلا القياس الخطابي بوصفه وسيلة حجاجية ناجعة.

٢– التمثيل:

يتمثل في المشابهة بين حالين في مقدمتيهما، بغية استنتاج نهاية الأخرى بالنظر إلى الأولى.

وقد التفت البلاغيون العرب القدامى إلى دور المثل في التأثير والإقناع؛فابن وهب يرى أن المثل"أنجع مطلبا،وأقرب مذهبا،ولذلك قال الله عز وجل:(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل)" (١٤).

ويذهب الزركشي إلى أن المثل يستعمل "لإخراج ما لا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة...وما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة" (١٥)

لا عجب– إذن– أن يحتج الخطيب بضرب الامثال؛ليرسخ معانيه في النفوس والأذهان، ومن أمثلة ذلك ما جاء في خطبة الحجاج في أهل العراق بعدما ولاه عليهم الخليفة عبد الملك بن مروان حين ضربت العراق الفتنة والفوضى، حيث قال:" فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة

مطمئنة،يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون". (١٦)

لقد اعتمد الحجاج بن يوسف على التمثيل في هذا المقام، لإثبات أن أهل العراق ليسوا على حق، وأنهم بما أحدثوه من فتنة واضطراب كأهل القرية التي تبدلت حالها إلى الجوع والخوف بعدما كان ينعم أهلها بالأمان ورغد العيش، ولا شك أن ضرب المثل هنا أسهم في تأكيد تلك الفكرة وترسيخها في أذهان السامعين.

٣- الاستشهاد:

تضمنت خطب الحجاج بن يوسف الكثير من الآيات القرآنية والأبيات الشعرية،التي تمثل حججا جاهزة يختارها الخطيب،ويوجهها إلى الغرض المراد الاستلال عليه. ولا شك أن هذه الحجج تستمد قوتها من مصادرها،ومن شيوعها وتداولها بين المتلقين.

أ- **الاستشهاد بالقرآن الكريم:** استعان الحجاج بن يوسف بآي القرآن الكريم في سياقات عدة خلال خطبه، ففي مقام مقارنته بين أهل الشام وأهل العراق، خاطب اهل الشام، مبشرا بثواب الله ونصره لهم بقوله:" بل أنتم يأهل الشام كما قال الله سبحانه وتعالى:(ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين،إنهم لهم المنصورون،وإن جندنا لهم الغالبون)"(١٧)

كما أنه يعلن تأييده للبيت الاموي ممقلا في الخليفة عبد الملك بن مروان،ويحث الناس على طاعته والنصياع لأوامره من خلال خطبته بالبصرة التي قال فيها:"قال تعالى:(فاتقوا الله ما استطعتم)، فهذه لله وفيها مثوبة، وقال:(واسمعوا وأطيعوا) وهذه لعبد الله،وخليفة الله،وحبيب الله،عبد الملك بن مروان"(١٨)

إن الحجاج بن يوسف يحتج بالآية السابقة على وجوب السمع والطاعة للخليفة الأموي، بعدما بالغ وقصر الطاعة عليه فقط. وهو ما أخذه عليه القرطبي في تفسيره لتلك الآية.(١٩)

وفي خطبة أخرى نراه يستنكر انشغال الناس بالدنيا وانصرافهم عن الاستعداد للآخرة، فيحذهم قائلا:" واعلموا أنكم ملاقوه ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى".(٢٠)
وحين مرض الحجاج، فرح أهل العراق، وأرجفوا بموته، فلما بلغه ذلك تحامل حتى صعد المنبر، وقال إنه لا يرجو الخير إلا بعد الموت، وأن الله رضي بالتخليد لأهون خلقه إبليس، ثم استحضر دعاء سليمان لربه؛لتأكيد زهده في الدنيا، وتشوفه للآخرة قائلا:" ولقد دعا العبد الصالح، فقال:(رب اغفر لي، وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) فأعطاه الله ذلك إلا البقاء". (٢١)

ب- الاستشهاد بالشعر: لقد اتاحت وحدة البيت في القصيدة العربية أن يختار الخطيب بيتا، أو عدة أبيات يوردها في خطبته؛ دعما لفكرة أتى بها، أو تصويرا لحال من الأحوال. (٢٢)
وهذا ما فعله الحجاج في خطبته في أهل الكوفة بعد توليته عليهم، حين استعاض عن البسملة والحمد بأبيات شعرية يقدم نفسه لرعيته من خلالها، فاستهل خطبته بقوله:

" أنا ابن جلا و طلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفها الليل بسوّاق حطم
قد لفها الليل بعصلبي أروع خرّاج من الدّوىّ"(٢٣)

لقد رسم الحجاج بن يوسف لنفسه – من خلال الأبيات السابقة- صورة القائد المشهور، الصلب، الحطم، الذي يسوق رعيته بلا رحمة أو شفقة، وهو بهذا الاستهلال الشعري يلقي الرهبة في قلوب المستمعين، ويحملهم على الإذعان له، وتجنب مواجهته.

وفي خطبة أخرى يصور الحجاج حاله مع أهل العراق قائلا:
" وإنما مثلي ومثلكم ما قال عمرو بن براق الهمداني:

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالم
متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم" (٢٤)

يدلل الحجاج على أن سياسته مع أهل العراق هي نتاج ظلمهم، وأن ما يلقونه من قسوة وشدة هو جزاء أفعالهم.

الآليات اللغوية للحجاج

١- التوكيد:

يلجأ المتكلم إلى التوكيد لتثبيت الحجج في أذهان السامعين،فيؤتى به" للحاجة للتحرز عن ذكر ما لا فائدة له، فإن كان المخاطب ساذجا ألقى إليه الكلام خاليا من التاكيد، وإن كان مترددا فيه حسن تقويته بؤكد، وإذا كان منكرا وجب تأكيده".(٢٥)

فالتوكيد – إذن- يضيف قوة حجاجية واضحة؛ لأن مستخدمه لا يقصد الإخبار فحسب، وإنما يقصد تأكيد القول وإقناع المتلقي به.

والمتأمل في خطب الحجاج بن يوسف يلاحظ حرصه على تدعيم حججه وأفكاره بكثير من المؤكدات، فيقول في إحدى خطبه مخاطبا أهل الكوفة:" أما والله إني لأحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله...إني والله يأهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق ما يقعقع لي بالشنان...أما والله لألحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة"(٢٦)

لقد استعان الحجاج بكثير من المؤكدات في هذه الخطبة(القسم-إن-لام التوكيد) فهو عالم بإنكار أهل العراق لولاتهم، لذا استهل أول لقاء بهم- وهو الوالي الجديد- بعبارات التهديد والوعيد المؤكدة، التي تهدف إلى انصياعهم له، وامتثالهم لأوامره، وإقناعهم بامتلاكه الصفات التي تؤهله لرياستهم،وتنفيذ ما أوعد به.

ومن اللافت اتكاء الحجاج على أسلوب القسم في خطبه لدعم بعض الحجج الواردة، فنراه يعلن كراهيته لأهل العراق من خلال قوله:" وأيم الله إني لأحب إليّ أن أحشر مع أبي بكر وعمر مغلولا، من أن أحشر معكم مطلقا"(٢٧) فيقسم أنه يفضل أن تغل يداه إلى عنقه يوم القيامة من أن يحشر مع أهل العراق، وهو يعلم أنهم طالما كرهوا ما يقول، فيرد عليهم بتأكيد كراهيته الشديدة لرؤيتهم:" وما أراكم إلا كارهين لمقالتي، وأنا والله لرؤيتكم أكره" (٢٨)

وحين ارتجت مكة بالبكاء؛ حزنا على مقتل ابن الزبير، حاول الحجاج إقناع أهل مكة بأن الرجل استحق العقاب على ما اقترف، فقال مؤكدا:" ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله"(٢٩)

ثم راح يحذهم من مغبة عصيانه،وعدم طاعته بقوله:"والله لقد وطئكم الحجاج وطأة مشفق،وعطفة رحم، ووصل قرابة، فإياكم أن تزلوا عن سنن أقمناكم عليه، فأقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار "(٣٠)

لقد استخدم في تحذيره أسلوب التوكيد(القسم– لقد) ليبين لأهل مكة أنهم لم يجدوا منه إلا العدل والرحمة والمعروف، فلا يحرموا أنفسهم من هذا الفضلبمخالفته وعصيانه.

كما استعان بأسلوب التوكيد في خطبة أخرى ليحث الناس على الخروج للجهاد،ويرغبهم فيه، وفي الوقت نفسه يحذرهم من التقاعس عنه، فيقول:" ألا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة، ألا وإن للناكل الهارب الهوان والجفوة" (٣١)

ومن أساليب التوكيد الموظفة في الخطب محل الدراسة (أسلوب القصر) عن طريق النفي والاستثناء، فالغاية من أسلوب القصر تمكين الكلام وتقريره في ذهن المتلقي، والأصل في النفي والاستثناء أن يجيئا لأمر ينكره المخاطب أو يشك فيه، أو لما هو في المنزلة نفسها.

وقد وظف الحجاج بن يوسف أسلوب القصر للتأثير في المتلقي، واستدراجه لتغيير مواقفه، ومن أمثلة ذلك قوله:" وإن لا اعد إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريت"(٣٢)

إن الحجاج من خلال هذا القول يوضح لأهل الكوفة نهجه وسيرته فيهم من خلال توجيه السامع إلى نتيجة مقصودة دون الالتفات إلى احتمالات أخرى، فأسلوب القصر يستعمله الخطيب لتوجيه خطابه الوجهة التي يريد، وكذا توجيه المتلقي إلى النتيجة المضمرة؛ إذ إنه – أي القصر– يقتضي وجود سياق تواصلي بين المتكلم والسامع.

وهذا ما قصده كذلك حين خاطبهم مهددا:" وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله"(٣٣)

لقد تضافر القسم مع أسلوب القصر– في القول السابق– لبيان عقوبة المتخلف عن القتال، وتأكيدها للتأثير في المخاطبين وإقناعهم بضرورة الخروج. وقد أكسب "القصر" الجملة بعدا حجاجيا أعمق وأنجع في التوجيه نحو النتيجة الضمنية.(٣٤)

٢– أسلوب الشرط:

يعد الشرط من أهم آليات الحجاج في اللغة العربية؛ لما يحمله من قوة ربط بين السابق واللاحق، أي بين الشرط وجوابه، فبالإضافة إلى أنه يشد انتباه المتلقي لما هو آت، فإنه يضفي طابعا حجاجيا إقناعيا من خلال تقديمه العلة السببية التي تؤدي إلى تحقق النتيجة.

وإذا تأملنا خطبة الحجاج بن يوسف حين قدم البصرة، وجدناه قد أقامها على أسلوب الشرط في سياق التهديد والوعيد لأهلها، فقد خاطبهم بقوله:" أيها الناس: من أعياه داؤه، فعندي دواؤه، ومن استطال أجله فعليّ أن أعجله، ومن ثقل عليه رأسه، وضعت عنه ثقله، ومن استطال ماضي عمره، قصّرت عليه باقيه...فمن سقمت سريرته، صحت عقوبته، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه،ومن سبقته بادرة فمه، سبق بدنه بسفك دمه" (٣٥)

لقد صاغ الحجاج وعيده في قالب شرطي؛ لتبيان العقاب الحتمي لكل من خالفه، مما يحمل المتلقين على الإذعان له والتسليم لأوامره. الأمر نفسه نلقاه حين وجه أحد قادته للقتال، فخطب في الناس يحثهم على الخروج معه، فقال محذرا من تخلف منهم:" لئن فعلتم في هذا الموطن، كفعلكم في المواطن التي كانت، لأولينكم كنفا خشنا، ولأعركنكم بكلكل ثقيل"(٣٦) يقصد تلك المواطن التي خذلوه فيها ، ولم يهبوا فيها لنصرته.

وبعد أن هزم الحجاج ابن الأشعث في موقعة دير الجماجم، خطب في أهل العراق لتوبيخهم على مناصرة الأخير ،فمما قال:" إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم" (٣٧)

يدل القول السابق على خبرة الحجاج بن يوسف بأهل العراق، ومعرفته الدقيقة بأحوالهم وخصالهم،وما دام هو العليم بأمورهم، والخبير بأسرارهم، فهو الأجدر بأن يسوسهم ويتولى زمام شئونهم.وهو ما حرص على تأكيده- عن طريق أسلوب الشرط- في إحدى خطبه قائلا:" ولو علمت أن أحدا أقوى عليكم مني، أو أعرف بكم، ما وليتكم"(٣٨)

فلا شك أن أسلوب الشرط قد أكسب العبارة قوة حجاجية، أسهمت في إقناع السامعين، ودفعتهم إلى التسليم بما ورد فيها.

٣- ألفاظ التعليل:

إن ألفاظ التعليل من الأدوات اللغوية التي تؤدي دورا وظيفيا في العملية الحجاجية؛ فالتعليل يعد وسيلة منطقية لتسويغ الأحكام، وآلية عقلية لترسيخ الأفكار وإزالة الغموض الذي قد يحدث في ذهن المتلقي، وذلك حين يعمد المتكلم إلى تبرير دعواه، وتقديم السبب والحجة لها.

ولعلنا نتبين العلاقة بين التعليل والحجاج في قول السيوطي عن التعليل:" وفائدته: التقرير والأبلغية، فإن النفوس أبعث على قبول الأحكام المعللة من غيرها"(٣٩)

ولا نعدم تلك التقنية الحجاجية في خطب الحجاج بن يوسف، فقد أوضح القصد من اختياره واليا للعراق من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان من خلال قوله:" فرماكم بي،لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، واضجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي"(٤٠)

فيورد الحجة على أن أهل العراق استحقوا –بأفعالهم- واليا يعمل فيهم الشدة والحزم، ولا تأخذه بهم رحمة ولا رأفة.

وأراد تسويغ قتل ابن الزبير، من خلال دعواه بألا شيء يمنع العقاب عن العصاة، حتى آدم- عليه السلام- حين أغواه الشيطان خرج من الجنة رغم منزلته، ويبرر الحجاج هذه المنزلة في قوله:" ولو أباحه جنته، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير "(٤١)

وحين خطب في أهل البصرة واعظا، علل تحذيره إياهم من الزيغ قائلا:" أيها الناس، إياكم والزيغ؛ فإن الزيغ لا يحيق إلا بأهله"(٤٢)

وبهذا يتضح أن المتكلم إن أراد تثبيت فكرته في ذهن السامع، ساق السبب، وأورد الحجة عليها.

الآليات البلاغية للحجاج

١-التشبيه:

يعرف التشبيه بأنه صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو من جهات كثيرة لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه.(٤٣)

ومادام فن الخطابة يهدف الإقناع، فإن الخطيب يعمد إلى التشبيه لتقريب صورة الشيء إلى ذهن المتلقي، فيفسح له المجال للفهم والاستنتاج. ومن ثم يعد التشبيه إحدى آليات الحجاج والبرهنة.

وقد استهل الحجاج بن يوسف خطبته حين ولي العراق بتشبيه بليغ حيث قال:

" أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني" (٤٤)

فشبه نفسه بالصبح الذي يجلو الظلمة للدلالة على شهرته ووضوح أمره، كما أعقب التشبيه بصفة(طلاع الثنايا) المعبرة عن قدرته على مواجهة الصعاب، ليدرك السامع قوته وشجاعته.

ثم تتوالى التشبيهات في الخطبة نفسها، حيث يوجه حديثه لأهل العراق قائلا:" أما والله لألحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل"(٤٥)

وغرض هذه التشبيهات هو بيان العقوبات وألوان العذاب التي سيتجرعها العراقيون إذا استمروا بالفتن ولم ينصاعوا لأوامر واليهم الجديد، فسيسلخ أبدانهم كما تلحى العصا، وسيجعلهم قرعان دون شعر كالحجارة الملساء، كما أنه سيعصبهم كعصب السلمة، والسلمة شجرة ذات شوك تعصب أغصانها بأن تجمع وتشد بحبل شديد، ثم تخبط فيتناثر ورقها، بالإضافة إلى ضربهم كما تضرب الإبل الغريبة التي ترد الماء فتطرد منه.

وهكذا فقد تلاحمت تلك التشبيهات من أجل ترهيب أهل العراق وإقناعهم بأنه سينفذ تهديده بالعقاب، فيتراجعوا عن مواجهته أو مخالفته.

ومن أمثلة التشبيه كذلك ما ورد في خطبة دير الجماجم حيث قال:" إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها"(٤٦)

وهنا جاء التشبيه في معرض ذم أهل العراق؛ إذ صور فرارهم من معركة دير الجماجم خوفا من الموت، بفرار الإبل الشوارد إلى أوطانها ، المشتاقة إلى مواضع بروكها.
وإذا كان هذا هو الحال مع أهل العراق، فإن الأمر يختلف مع أهل الشام، الذين صاغ الحجاج بن يوسف مدحهم في صورة تشبيه من خلال قوله:" يأهل الشام، إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفي عنها المدر " (٤٧)

فهو يعبر عن محبته لأهل الشام ومبالغته في الدفاع عنهم من أي خطر يداهمهم، بتشبيهنفسه بذكر النعام الذي يتفانى في حماية فراخه من كل الأخطار.

واللافت أن التشبيهات السابقة مستمدة من البيئة العربية الصحراوية، وهو ما يحيلنا إلى حديث ابن طباطبا العلوي عن التشبيه في كتابه(عيار الشعر)، حيث قال إن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها، وأدركه عيانها، ومرت به تجاربها، فليست تعدو أوصافهم ما رأوه من البوادي والسماء.(٤٨)

وهكذا اتضح كيف طوع الحجاج بن يوسف التشبيه،لتأكيد معانيه وإبراز الحقائق وتجليتها للتاثير في المتلقين، وإقناعهم بها.

٢- الاستعارة: إذا كان القياس المنطقي إحدى وسائل الحجاج- كما أوضحنا سابقا- فإن عبد القاهر الجرجاني قد أشار إلى الصلة بين الاستعارة والقياس في قوله:" أما الاستعارة فهي ضرب من التشبيه، ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول، وتُستفتى فيه الأفهام والأذهان"(٤٩)
وكأن الحجاج بن يوسف قد وجد ضالته في الاستعارة لتبلغ كلماته أفهام السامعين؛ إذ تزخر خطبه بصور استعارية عدة، صنعت فضاء رحبا لتلك الخطب ذات البناء القصير، فإذا كان زمن إلقاء الخطبة قصيرا، فإن زمن فهمها وتأمل معانيها يستغرق زمنا أطول.

ولما كانت الاستعارة إحدى وسائل التأثير في المتلقي وإقناعه، أصبح لذلك المتلقي دور في عملية الحجاج؛ إذ يُعمل ذهنه للكشف عن العلاقة بين المعنى الحقيقي والمجازي، لكي يصل إلى الدلالة التي يروم إليها المتكلم.

هذا، وتقوم خطبة الحجاج في أهل الكوفة حين ولي العراق على مجموعة من الاستعارات الحاملة لمعان عدة، فيقول– على سبيل المثال–:" أما والله إني لأحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله...وإني لأرى أبصارا طامحة...ورءوسا أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها" (٥٠)

فشبه(الشر) وهو شيء معنوي،بشيء مادي يحمل، وشبهه كذلك بإنسان يمشي له نعل، كما شبه رءوس الخارجين على خلافة بني أمية بثمار الأشجار الناضجة التي حان أوان قطفها.

إن تلك الاستعارات المكنية قدمت صورة مفزعة في نفوس السامعين، كشفت عن حقيقة الوالي الجديد بشدته وصرامته، وهدفت إلى إقناعهم بعدم مواجهته.

ثم يصور الحجاج عملية اختياره واليا على العراق عن طريق صور استعارية نلقاها في قوله:"إن أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه– نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عودا، وأصلبها مكسرا، فرماكم بي"(٥١)

حيث شبه نفسه وغيره من قادة جيش الخليفة ورجاله بالسهام التي تضمها الكنانة، ولما كان الحجاج السهم الأقوى والأصلب، رمى به الخليفة أهل العراق، وفي هذا تصوير – كذلك– لأهل العراق بالفريسة التي تُرمى للإيقاع بها.

كما يعمد إلى الاستعارة للاحتجاج على مساوئ الفتنة وطريقته في مجابهتها كما بدا في قوله:" يأهل الكوفة، إن الفتنة تلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، وتحصد بالسيف" (٥٢)

فقد شبه الفتنة مرة بالأنثى التي تلقح، وبالثمار التي تحصد مرة أخرى.

وفي خطبة وعظية له يقول:" رب دائب مضيع، وساع لغيره،والموت في أعناقكم،والنار بين أيديكم، والجنة أمامكم"(٥٣)

فتشبيه الموت بالقلادة تاكيد لدنو الأجل، ولهذه الاستعارة دور في التأثير في السامعين، وإقناعهم بالعمل للآخرة، فالاستعارة أدل ضروب المجاز على ماهية الحجاج.(٥٤)

٣- **الكناية:** الكناية هي أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه فيومئ به، ويجعله دليلا عليه.(٥٥)

ولعلنا نستنتج من هذا التعريف الدور الحجاجي للكناية، التي تؤدي وظيفة الإثبات؛ لأنها تقدم المعنى مصحوبا بالدليل. لذا فإنها تعد آلية حجاجية ناجعة، لما لها من أثر قوي في نفس المتلقي وعقله، فهي أبلغ من التصريح، كما أنها تساعد على إعمال العقل في كشف المعنى المراد.

والخطيب حين يسدل ستارا على المعنى الحقيقي الذي يقصده، فإنه يجعل المتلقي متحفزا ومتشوقا لرفع هذا الستار، ومعرفة الدلالة التي تكمن وراءه.

والكناية حاضرة في قول الحجاج بن يوسف:" وإني والله يأهل العراق...ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين، ولقد فررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة، وجريت إلى الغاية القصوى"(٥٦)

إن الحجاج بن يوسف في قوله السابق يقدم الحجج والبراهين على جدارته وأحقيته بحكم العراق وأهله، ولم يسعفه في ذلك غير الكنايات التي يمكن عرضها كالآتي:

- ما يقعقع لي بالشنان: كناية عن دهائه وصعوبة خداعه.
- لا يغمز جانبي كتغماز التين: كناية عن فطنته، وإحاطته بالأمور كافة.
- لقد فررت عن ذكاء: كناية عن رشده وكمال عقله.
- فتشت عن تجربة: كناية عن تجاربه المؤهلة لتسيير الأمور.
- جريت إلى الغاية القصوى: كناية عن قدرته على الوصول إلى الهدف المرجو.

وهكذا كان الاتكاء على الكناية سبيلا إلى ترسيخ المعاني المطروحة في نفوس السامعين وإقناعهم بها.

كما نلقاه قد وظف الكناية في الاحتجاج لقتل ابن الزبير، بأن وصف ما حدث بقوله:" موج ليل التطم، وانجلى بضوء صبحه"(٥٧) في إشارة منه إلى الفتنة والفوضى اللتين أحدثهما ابن الزبير، ولم ينجل شرهما إلا بقتله.

وفي مقام تقريعه لأهل العراق وسرده لمساوئهم قال فيهم:" إن الشيطان قد استبطنكم، فخالط اللحم والدم والعصب، والمسامع والأطراف" (٥٨) وهو ما يعد كناية عن استعباد الشيطان لهم، وغوايته إياهم، وهو ما انعكس في أقوالهم وأفعالهم.

من خلال الأمثلة السابقة اتضح كيف كان الاعتماد على الكناية وسيلة لاستدراج المتكلم لخصمه؛ للتسليم بما يقال، من خلال محاولة إقناعه،وعدم إتاحة الفرصة لمواجهته أو تخطئته.

٤- الأساليب الإنشائية:

تضطلع الأساليب الإنشائية بدور مهم في العملية الحجاجية؛ فهي لا تنقل واقعا، أو تحكي حدثا، وإنما تثير المشاعر وتستدعي العواطف والأحاسيس، ولا شك أن إثارة المشاعر ركيزة يقوم عليها الخطاب الحجاجي. والمتأمل في الخطب محل الدراسة، سيلحظ أن الاستفهام والنداء من أكثر الأساليب الإنشائية التي اعتمد عليها المتكلم في صوغ خطابه.

أ- **أسلوب الاستفهام:** يجنح الخطيب عادة للاستفهام غير الحقيقي الذي لا يراد به السؤال؛فهو لا ينظم حوارا مع المتلقين، وإنما يلقي ما يجيش به صدره والناس مستمعون له، فيصوغ الاستفهام صياغة مجازية لأغراض مختلفة باختلاف السياقات التي يتحدث فيها. ومن ثم يعتمد على أسلوب الاستفهام في الإقناع وإقامة الحجة.

ففي خطبته بعد وقعة دير الجماجم ساق الحجاج بن يوسف مجموعة من الاستفهامات لغرضي الاستنكار والتقرير، كما يتضح في قوله:" فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وقعة، أو يحجزكم إسلام، أو ينفعكم بيان؟"(٥٩)

إن الحجاج يعلم الإجابة سلفا، ولكنه صاغ الاستفهامات ليثبت لأهل العراق أن الحلول السلمية لا تجدي نفعا في إصلاحهم.

ثم يكثف من الاستفهامات فيخاطبهم قائلا:"ألستم أصحابي بالأهواز؟ حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر... هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاو، أو استنصركم ظالم إلا تبعتموه وآويتموه ونصرتموه؟...هل شغب شاغب، أو نعب ناعب، أو زفر زافر، إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟"(٦٠)

غير خاف ما تضمنته هذه الاستفهامات التقريرية من توبيخ وتحقير لأهل العراق الذين انخرطوا في ثورة ابن الأشعث على الدولة الأموية، فالحجاج بن يوسف يقدم الحجة على فساد خصالهم وأفعالهم عن طريق الاستفهام الذي يتضمن قوة حجاجية إقناعية تتمثل في تسليم المتلقي بما يقال، وإقراره بصحته.

ب- أسلوب النداء: افتتح الحجاج كثيرا من خطبه بأسلوب النداء، بل إن بعضها قد تكرر فيها النداء بصورة لافتة، وهو ما يشي بتجاوز النداء لوظيفته الأساسية- وهي طلب الحضور والانتباه- إلى مقاصد أخرى يكشفها السياق.

واللافت أن الحجاج بن يوسف قد استغل نداءه لأهل العراق للدلالة على نقائصهم ومثالبهم، ففي خطبة الولاية ناداهم بقوله:" إني والله يأهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق ما يقعقع لي بالشنان"(٦١). وحين سمع تكبيرا في السوق، صعد المنبر وقال:" يأهل العراق، يأهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، وبني اللكيعة، وعبيد العصا" (٦٢)

وفي خطبة أرى يواجههم بفسادهم قائلا:" يأهل العراق، إن الشيطان قد استبطنكم، فخالط الدم والعصب، والمسامع والأطراف"(٦٣)

إن الأمثلة السابقة تنبئ عن توظيف الحجاج بن يوسف لأسلوب النداء من أجل الاحتجاج برايته وخبرته بأهل العراق وصفاتهم.

كما حمل النداء -في خطب أخرى- دلالة تأثيرية تمثلت في التهديد والوعيد، وهو ما نتبينه في قوله:- " يأهل الكوفة، إني لأحمل الشر بحمله"(٦٤)

-" يا أيها الناس، من أعياه داؤه فعندي دواؤه،ومن استطال أجله فعلي أن أعجله، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله"(٦٥)

ولكن الأمر يختلف عند ندائه لأهل الشام؛ فنداؤه لهم موجه لإظهار المودة والمدح والتعظيم، وهو ما نتمثله حين خاطبهم قائلا:

-" يأهل الشام، إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه، ينفي عنها المدر"(٦٦)

-"بل أنتم يأهل الشام كما قال سبحانه:(ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون"[٦٧]

وهكذا تنوعت الغاية من النداء في خطب الحجاج، حسب اختلاف مقاصده، وما يريد توجيهه للسامعين.

خاتمة:

لقد تناول هذا البحث الخطاب الحجاجي في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي ، وأبان عن كيفية توظيفه للوسائل المنطقية كالقياس والتمثيل والاستشهاد ، كما تعرض للوسائل اللغوية التي وظفها الحجاج بن يوسف – كالتوكيد، وأسلوب الشرط، وألفاظ التعليل– للتأثير في المستمعين وإقناعهم بآرائهمن، بالإضافة إلى تناول الآليات البلاغية للحجاج كما تجسدت في الخطب محل الدراسة، والتي كان لها دور جلي في العملية الحجاجية الإقناعية.

الهوامش

(١) لسان العرب- ابن منظرر- دار صادر- بيروت- ط ١ -١٩٩٧م- مادة حجج- ص ٢٧
(٢) البيان والتبيين- الجاحظ- تحقيق: عبد السلام هارون-مكتبة الخانجي- القاهرة-ط٧- ١٩٩٨م- ١/ ٧٦
(٣)انظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- ابن الأثير- تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد-المكتبة العصرية- بيروت- ١٩٩٠م- ٦٤/٢
(٤)انظر البرهان في وجوه البيان-ابن وهب- تحقيق:حفني محمد شرف- مطبعة الرسالة- القاهرة- ص ١٧٦
(٥) انظر الحجاج في القرآن الكريم- عبد الله صولة- دار الفارابي- بيروت- ط١- ٢٠٠٧م- ص٨
(٦)انظر اللسان والميزان-طه عبد الرحمن- المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- ط١- ١٩٩٨م- ص ٢٢٦
(٧)انظر اللغة والحجاج- أبو بكر العزاوي- الدار البيضاء- ط١- ٢٠٠٦م- ص ١٦
(٨) انظر بلاغة الخطاب الإقناعي- محمد العمري- إفريقيا الشرق- الدار البيضاء- ط٢-٢٠٠٢م-من ص ٦٩:٩٤
(٩)قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية-أميل يعقوب وآخرون-دار العلم للملايين- بيروت،ط١، ١٩٨٧م- ص ٣٤
(١٠)في أصول الحوار وتجديد علم الكلام- طه عبد الرحمن- المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، ط٢- ص٩٨
(١١)بنية العقل العربي- محمد عابد الجابري- مركز دراسات الوحدة العربية- لبنان- ط ٧، ٢٠٠٤م- ص١٣٩
(١٢)جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة- أحمد زكي صفوت- مكتبة مصطفى الحلبي-ط١- ١٩٣٣– الجزء الثاني- ص ٢٨١
(١٣) جمهرة خطب العرب- ص ٢٧٤
(١٤) البرهان في وجوه البيان- ابن وهب- ص ١١٧-١١٨
(١٥)البرهان في علوم القرآن- الزركشي- دار إحياء الكتب العربية- بيروت-ط١-١٩٩٠م-١ /٤٨٦
(١٦)جمهرة خطب العرب- ص ٢٧٦
(١٧)السابق- ص ٢٨١
(١٨)السابق- ص ٢٨٢
(١٩)انظر الجامع لأحكام القرآن-القرطبي- دار الفكر- ١٣٥/١٨
(٢٠) جمهرة خطب العرب- ص ٢٨٣
(٢١)السابق- ص٢٨٦
(٢٢)انظر الخطابة في عصرها الذهبي- إحسان النص- دار المعارف-١٩٦٣- ص ١٤٩
(٢٣)البيت لسحيم بن وثيل، جلا:الصبح،الثنايا:جمع ثنية وهي الطريق في الجبل،زيم:فرس أو ناقة،حطم: الراعي الظلوم للماشية،الأروع:الذكي،الدوي:جمع دوية وهي الفلاة المتسعة.
(٢٤) جمهرة خطب العرب ص ٢٧٧
(٢٥) البرهان في علوم القرآن-الزركشي،٣١٠/٢
(٢٦) جمهرة خطب العرب- ص ٢٧٥-٢٧٦
(٢٧)السابق- ص ٢٨٤
(٢٨)السابق- ص٢٨٣
(٢٩)السابق- ص٢٧٤
(٣٠)السابق- ص٤٩٧
(٣١)السابق- ص ٤٤٤
(٣٢)السابق- ص٢٧٦
(٣٣)السابق- ص٢٧٧
(٣٤)انظر: البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة ٣٤/١،ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته- إعداد وتقديم حافظ إسماعيل- عالم الكتاب الحديث- إربد،٢٠١٠م
(٣٥) جمهرة خطب العرب- ص ٢٧٨
(٣٦)السابق- ص٤٤٤ الكنف: الظل،جانب الشيء-الكلكل: الصدر،(أناخ عليه البؤس كلكله: ثقل عليه وضغط)
(٣٧)السابق- ص ٢٨٠
(٣٨) جمهرة خطب العرب- ص ٢٨٤

(٣٩)الإتقان في علوم القرآن-السيوطي- تحقيق مركز الدراسات القرآنية- مجمع الملك فهد للطباعة- ١٤٢٦ه- ص ١٦٨٥
(٤٠) جمهرة خطب العرب- ص٢٧٦
(٤١)السابق- ص ٢٧٤
(٤٢)السابق- ص ٢٨٤
(٤٣) انظر: العمدة في صناعة الشعر ونقده – ابن رشيق القيرواني- تحقيق:النبوي شعلان-دار درة الغواص-القاهرة - ٢٨٦/١
(٤٤) جمهرة خطب العرب- ص ٢٧٤
(٤٥)السابق- ص ٢٦٧
(٤٦)السابق- ص ٢٨٠ أعطان:جمع عطن، مبرك الإبل
(٤٧)السابق- ص ٢٨١
(٤٨)انظر: عيار الشعر- ابن طباطبا العلوي- تحقيق عباس عبد الساتر- دار الكتب العلمية- بيروت- ط٢- ٢٠٠٥م- ص ١٦
(٤٩)أسرار البلاغة- عبد القاهر الجرجاني- تحقيق محمد الإسكندراني،ومحمد مسعود- دار الكتاب العربي- بيروت- ٢٠٠٥م- ص ٢٤
(٥٠) جمهرة خطب العرب- ص ٢٧٥
(٥١)السابق- ص٢٧٦
(٥٢)السابق- ص ٢٨١
(٥٣)السابق- ص ٢٨٧
(٥٤)انظر: اللسان والميزان- طه عبد الرحمن- ص ٢٣٣
(٥٥)انظر: دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني-قرأه وعلق عليه محمود شاكر- مكتبة الخانجي- القاهرة-ط٣-١٩٩٢م- ص ٦٦
(٥٦) جمهرة خطب العرب- ص ٢٧٦ الشنان: القربة البالية، تستخدم لحث الإبل على السير عن طريق إفزاعها.
(٥٧)السابق- ص ٤٩٧
(٥٨)السابق- ص ٢٧٩
(٥٩)السابق- ص ٢٢٧٩
(٦٠)السابق- ص ٢٨٠
(٦١)السابق- ص ٢٧٦
(٦٢)السابق- ص ٢٧٧
(٦٣)السابق- ص ٢٧٩
(٦٤)السابق- ص ٢٧٥
(٦٥) السابق- ص ٢٧٨
(٦٦) السابق- ص ٢٨١
(٦٧) السابق- ص ٢٨١

"The Eloquence of Arguments in Al-Haggag's Sermons"

Abstract

Arguments is considered as an introduction for studying literary texts which have a persuasive feature.These texts represent apersuasive speech withwhich their authors aim to influence the recipients, and wining over them to approve certain opinion or predicament.Since the art of "elocution" (public speech) is one of the prosaic arts, which aim for persuading and influencing, the orator(public speaker) has to depend on argumentative methods withwhich he influences his auditors, and throughwhich he proves the veracity of his allegation and the propriety of his opinion.Therefor, this research lifts up by studying the sermons of Al_Haggag Bin Youssof - who is one of most famous orators in "The Umayyad era"- through a deliberative perspective; in order to clarify varying argument's means and methods-linguistic and rhetorical- to shed light on their role in composing elocution and expressing its significance.

Keywords: Arguments- the elocution- the deliberative- the persuading- the figuring.